بعض الامثال والاقوال

قديماً وحديثاً

(١)

جاء في تعريف كتاب الفاخر الذي قرظهُ المقتطف في العدد الماضي للمفضل بن سلمة صاحب الفراء والكسائي انهُ « كتاب معاني ما يجري على ألسن العامة في امثالهم ومحاوراتهم من كلام العرب وهم لا يدرون معنى ما يتكلمون بهِ من ذلك » . والمفضل هذا من رجال اواخر القرن الثالث واوائل الرابع للهجرة او القرن التاسع واوائل العاشر للمسيح . وقد رأيت في هذا المقال ان اذكر ما يطابق هذه الامثال والمحاورات من امثال العامة ومحاوراتهم في بعض بلاد الشام فيرى القارئ منهُ الى اي حدٍّ تحفظ الاقوال المتداولة على الالسنة ومبلغ التغيير الذي طرأ عليها في نحو الف من السنين . وان كان في بقاء الكلام الف سنة شيءٌ من العجب فالعجب منهُ بقاء بعض العادات الوفاً من السنين . فقد ذكر في التوراة انهُ لما دعا ايليا النبي على اخاب احد ملوك اسرائيل قال في دعوتهِ « ويقطع الله لآخاب كل بائل بحائط » وهي استعارة قبيحة ينبو منها السمع وربما كانت مستحية في الادب العبراني القديم . وقد كان ايليا واخاب من اهل القرن التاسع قبل المسيح ولا تزال نرى هذه العادة الشنيعة منتشرة في جميع بلاد الشرق حتى يومنا هذا

وفي اختيار الامثال والاقوال الواردة في كتاب الفاخر لمقابلتها بما يدور على السن بعض اهل الشام لزمت المشابهة الحرفية ولم اخرج عنها الا مرة او مرتين والاَّ لو تناولت المشابهة المعنوية ايضاً لاتسع لي المجال وخرجت عن الغرض الاصلي من هذا المقال . وسأذكر اولاً المثل او القول القديم واوجه تفسيرهُ ثم اتبعهُ بالمثل او القول المشهور بين عامة هذا العصر

* * *

(١) يفهم من مالحة . اي رضاع والملح اللبن ومنهُ قولهم لم يحفظ الملح معناهُ الرضاع . والملح في كلام العرب الصحبة (ايضاً) . وكان خزاعة يحلفون بالملح والرماد والنار (ولم يبين الشارح تماماً المراد بالملح هنا :

وفي الشام يقولون بيننا وبينكم خبز وملح اي اننا اكلنا معاً فذلك يجب علينا حفظ ذمامكم والوفاء لكم . وقد اشتقوا من ذلك فعل مالح وهم يقولون في دعوة زائر الى الطعام « مالحنا » اي كل معنا خبزاً وملحاً

(٢) ملحهُ على رُكبتهِ . يقال للرجل اذا كان سيّء الخلق يغضب من كل شيء. ملحهُ على ركبتهِ اي ادنى شيء يبددهُ يريد انهُ ادنى شيء يغضبهُ

وفي الشام ملحهُ على ذيله ويضربونهُ لناكر الجميل وعديم الوفاء. والصورة القائمة في ذهنهم من ذلك انهم يشبهون رجلاً هذه صفتهُ بحيوان ذي ذنب اكل الملح مع اصحابهِ فلم يتخلل بدنهُ او تحللهُ ولكنهُ لم يبقَ في دمهِ ومفاصلهِ بل تسرب الى ذيله وتجمع هناك بلورات كما كان قبل ذوبانهِ ثم نفض ذيلهُ فسقطت كل حبات الملح منهُ . ولا يخفى ان المثلين مختلفان في مغزاهما الاول يضرب للغاضب والثاني لجاحد الجميل

(٣) النقد عند الحافرة قال الفراء معناهُ اذا قال بعتك رجع عليهِ بالثمن . وبعضهم يقول النقد عند الحافر وسألت عنهُ بعض العرب فقال عند حافر الفرس

وفي الشام النقد والحافر اي دفع الثمن حالاً حقيقة ومجازاً فاستعملها واحد

(٤) شيخ كأنهُ قفةٌ . القفة ما يبس من الشجر فالمعنى قد بلي وفخر

ويوصف الشيخ البالي في الشام بمثل القفة يريدون القفة المعروفة اي انهُ يكاد يكون مجسماً بعضهُ على بعض مثلها لفرط نقلصهِ وانكماشهِ ضمناً وكبراً . ويشتقون من ذلك فعلاً واسم فاعل فيقولون لفقف ومتقفق

(٥) جاؤوا على بكرة ابيهم اي كلهم

ويقولون في الشام « اجوا عن بكرة ابوهم » هذا بلفظهِ فيجعلون عن مكان على والمعنى واحد

(٦) فلان يشطر وهو شاطر . قال الاصمعي الشاطر الذي شطر عن الخير اي بعد عنهُ . (فهو لذلك ذمٌّ لا مدح)

والشاطر في عرف عامة الشام البارع فهو مدح لا ذمٌّ . لكنهم يقولون ايضاً فلان يشطر اي يظهر الشطارة . وبلاش شطارة علينا . وهذان يشعران بانهم يريدون بالشطارة هنا الدهاء وهو المعنى الذي وضعت لهُ وهذا هو المتداول ايضاً على السنة العامة في مصر . وفي بعض امثال الانجيل مثل الابن الشاطر اي الذي اعيا اهلهُ خبثاً وهو العاق ضدُّ البارّ . وقد ترجم في الانكليزية The prodigal son اي الابن المسرف او المخلاف وهو السفيه في اصطلاح القانون . وربما قابل الشاطر المكار او اللعبي في اصطلاح عامة المصريين

(٧) هو ابن عمهِ لحمًا اي الملتصق بهِ والخالص

وفي الشام هو ابن عمهِ اللحّ

(٨) سمّن كلبك يأكلك . اول ما قيل لرجل من طسم وكان لهُ كلب وكان يسقيهِ

اللبن و يطعمهُ اللحم واستتبهُ يرجو ان يصيب بهِ خيراً ويحرسهُ فاتاهُ ذات يوم وهو جائع فوثب عليهِ فاكلهُ فقيل «من كلبك يا كلك فذهبت مثلاً

والمثل العامي في الشام رب كلبك يعقر جنبك والمغزى واحد وهذا اقرب الى العقل من الاول اذ لم يسمع عن كلب اكل صاحبهُ غير الكلب المذكور في هذه الحكاية وانما سمع عن اناس اكلوا كلابهم . وكل ما يفعل الكلب اذا كلبَ او استثير انهُ يعضّ الناس او يعقرهم . واهل الرجل الضمير المشار اليهِ هو نفسهُ بحيرام عامر في الحكاية المشهورة . وخواها ان رجلاً اجار ضبعاً خائفة جائعة فامنها من خوف واشبعها من جوع حتى اذا انس بها قامت عليهِ و بقرت بطنهُ . فتناول الناس حكاية الضبع ونسبوا فعلتها الى الكلب خطأ وساعدهم على هذا الخطإ توغل قبيلة ضبع في القدم وصعوبة التحقيق في كل قديم

(٩) جاء برأس خاقان هو ملك من ملوك الترك كان فيما يلي ارمينية وكان قتل الجرّاح بن عبد الله عامل هشام بن عبد الملك على ارمينية واذربيجان فوجه اليهِ هشام سعيد بن عمرو الجرشي فاوقع سعيد بهِ فهزم اصحابهُ وقتلهُ واحتزّ رأسهُ ووجه بهِ الى هشام فسرّ بذلك المسلمون وضربوا بهِ المثل

يقولون في الشام « جايب راس كليب ؟ » استفهاماً انكارياً كانهم يستعظمون ذلك لما عرف عن كليب من العزة حتى ضرب المثل بهِ فقيل « اعزّ من كليب وائل »

(١٠) ب - من اشبه اباهُ فما ظلم . قال الاصمعي معناهُ ما وضع الشبه في غير موضعهِ وانشد الطوسي

اقول كما قد قال قبلي عالم بهنّ ومن اشبه اباهُ فما ظلم

ت - قال الاصمعي اصل الظلم كلهِ وضع الشيء في غير موضعهِ فالمعنى لم يضع الشبه في غير موضعهِ وانشد لكعب بن زهير

اقول لهنّ شبهات بما قال عالماً بهنّ ومن اشبه اباهُ فما ظلم[1]

---

(١) تكرر هذا المثل في كتاب الفاخر مرتين في المرة الاولى (ب) نسب البيت الى الطوسي وهو من اهل القرن الرابع للهجرة وفي الثانية (ت) نسب الى كعب بن زهير من اهل صدر الاسلام والاختلاف قليل بين صدر البيتين حتى لا حسبهما بيتاً واحداً متكرراً . وقد اوتكب ناظمها او ناظلها خطأ واحداً من تسكين آخر الفعل الماضي « اشبه » قال الشارح « جزم الطاء من اشبه لكثرة الحركات » ولا حركات . وقد قال الراجز

بابهِ اقتدى عدىٌّ في الكرم ومن يشابه ابه فما ظلم

فاصلح هذا الخطأ بانكر منهُ اي باعراب « اب » بالحركات والقاه يستشهدون بهذا البيت على جواز اعراب الاسماء الخمسة بالحركات . وهيهات لو عرفوا قائلهُ لعرف هل المثل اسبق ام هذا البيت . والغالب ان تسبق الامثال ولكن كثيراً من الامثال مقتبس من الشعر وخصوصاً الجاهلي منهُ

وفي الشام يقولون « من اجا لاهله ما تعدّى » والمعنى واحد

(١١) ضرب عليهِ سابة · والسابة الطريق اي جعل لما يريد ان يفعلهُ بهِ طريقاً

وفي الشام يقال « ضارب علينا سابة » اي آمرٌ نافذ شائع بائنهِ · ومن ذلك يقولون لا اريد ان اكون تحت سابة فلان اي امرتهِ وحكمهِ ويفخمون السين كانها صاد فيقولون صابة ويسمون بها نوعاً من الملابس · وفي القاموس « السويّة من مراكب الاماء والمحاجين او كساءٌ محشوّ بثمام ج سوايا · وكذلك الكساء الذي يجعل على ظهر الابل » · ومعنى المثلين واحد تقريباً

(١٢) صاحت عصافير بطنهِ · اذا جاع قال الاصمعي العصافير الامعاء وقال ابو عمرو العصافير ما اضطرب عند الجوع والفزع مثل الامعاء

ليس في امثال العامة ما يطابق هذا البيت تماماً · فمنهم من يعبّر عن الجوع بقولهِ « الجوع كافر » ومنهم بقولهِ « خربت جونه » وجونه او جونيه في الصحيح فرضة لبنانية والاشارة في خرابها الى طغيان البحر عليها · وغنيّ عن البيان ما يسبق هذا الطغيان من هبوب الرياح واضطراب البحر وتلاطم امواجهِ

(١٣) نام نومة عبّود · قال ابو مسلم محمد الجواني انهُ عبد اسود وكان من حديثهِ ان رسول الله (صلعم) قال ان اول الناس دخولاً الجنة لعبد اسود يعني عبوداً وذلك ان الله بعث نبيًّا الى اهل قرية فلم يؤمن بهِ احدٌ الاّ ذلك الاسود وان قومهُ (قوم النبي) احتفروا لهُ بئراً فصيروهُ فيها واطبقوا عليهِ صخرة فكان ذلك الاسود يخرج فيحتطب و يبيع الحطب ويشتري بهِ طعاماً وشراباً ثم يأتي تلك الحفرة فيعينهُ الله على تلك الصخرة فيرفعها و يدلّي اليهِ ذلك الطعام والشراب · وان ذلك الاسود احتطب يوماً ثم جلس يستريح فضرب بنفسهِ الارض يشقهِ الايسر فنام سبع سنين ثم هب من نومهِ وهو لا يرى انهُ نام الاّ ساعة من نهار فاحتمل حزمتهُ فاتى القرية فباع حطبهُ ثم اتى الحفرة فلم يجد النبيّ فيها وقد كان بدا لقومهِ فيهِ فاخرجوهُ فكان يسئل (يسأل) عن الاسود فيقولون لا ندري اين هو فضرب بهِ المثل لكل من نام نوماً طويلاً »

لم اورد هذا المثل لان لهُ في امثال العامة شبيهاً بل لمشابهتهِ لحكايتين واحدة منها حكاية اصحاب الكهف وقد يستشهد بها العامة فيقولون نام نوم اهل الكهف · ولو سألتهم عن اهل الكهف وحكاية نومهم ما عرفوها · والثانية حكاية لفقها كاتب اميركي مشهور

اسمهُ « وشطن ارفنع » وساذكرها اما حكاية اصحاب الكهف فهذا ملخصها منقولة عن تاريخ الكامل لابن الاثير . قال

كان اصحاب الكهف ايام ملك اسمهُ دقيوس ويقال دقيانوس وكانوا بمدينة للروم اسمها افسوس وملكهم يعبد الاصنام وكانوا ثلثة آمنوا بربهم كما ذكر الله تعالى فقال ام حسبت ان اصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا . والرقيم خبرهم كتب في لوح وجعل على باب الكهف الذي اووا اليهِ وقيل كتبهُ بعض اهل زمانهم وجعلهُ في البناء وفيهِ اسماؤهم وفي ايام من كانوا وسبب وصولهم الى الكهف . وقيل كتبهُ الملك الذي ظهر عليهم وبنى الكنيسة وكانت عدتهم فيما ذكر ابن عباس سبعة وثامنهم كلبهم وقال انا من القليل الذين استثناهم . وقال ابن اسحق كانوا ثمانية فعلى قولهِ يكون تاسعهم كلبهم وكانوا من الروم وكانوا يعبدون الاوثان فهداهم الله وكانت شريعتهم شريعة عيسى عليهِ السلام . وزعم بعضهم انهم كانوا قبل المسيح وان المسيح اعلم قومهُ بهم وان الله بعثهم من رقدتهم بعد رفع المسيح والاول اصح . وكان سبب ايمانهم انهُ جاء حواريٌّ من اصحاب عيسى الى مدينتهم فاراد ان يدخلها فقيل لهُ ان على بابها صنماً لا يدخلها احد حتى يسجد لهُ فلم يدخلها واقى حماماً قريباً من المدينة فكان يعمل فيهِ فرأى صاحب الحمام البركة وعلقهُ الفتية فجعل يخبرهم خبر السماء والارض وخبر الآخرة حتى آمنوا بهِ وصدقوهُ . فكان على ذلك حتى جاء ابن الملك بامرأة فدخل بها الحمام فعيرهُ الحواري فاستحيا ثم رجع مرة اخرى فعيرهُ فسبهُ وانتهرهُ ودخل الحمام ومعهُ المرأة فماتا في الحمام فقيل للملك ان الذي بالحمام قتلها فطلب فلم يوجد فقيل من كان يصحبهُ فذكر الفتية فطلبوا فهربوا فمروا بصاحب لهم على حالهم في زرع لهُ فذكروا لهُ امرهم فسار معهم وتبعهم الكلب الذي لهُ حتى آواهم الليل الى الكهف . فقالوا نبيت ههنا حتى نصبح ثم نرى رأينا فدخلوهُ فرأوا عندهُ عين ماء وثماراً فاكلوا من الثمار وشربوا من الماء فلما جنهم الليل ضرب الله على آذانهم ووكل بهم ملائكة يقلبونهم ذات اليمين وذات الشمال لئلا تأكل الارض اجسادهم . وكانت الشمس تطلع عليهم وتمر الملك دقيانوس خبرهم فخرج في اصحابهِ يتبعون اثرهم حتى وجدهم قد دخلوا الكهف وامر اصحابهُ بالدخول اليهم واخراجهم . فكلما اراد رجل ان يدخل ارعب فعاد فقال بعضهم الا ليس لو كنت ظفرت بهم قتلتهم قال بل قالوا فابنوا عليهم باب الكهف ودعهم يموتوا جوعاً وعطشاً ففعل فبقوا زماناً بعد زمان . ثم ان راعياً ادركهُ المطر فقال لو فتحت باب هذا الكهف فادخلت غنمي فيهِ ففتحهُ فردّ الله اليهم ارواحهم

من الغد حين اصبحوا فبعثوا احدهم بورق ليشتري لهم طعاماً واسمهُ تمليخا. فلما اتى باب المدينة رأى ما انكرهُ حتى دخل على رجل فقال يعني بهذه الدراهم طعاماً فقال فمن اين لك هذه الدراهم. قال خرجت انا واصحاب لي امس فلما اصبحنا ارسلوني لاشتري لهم طعاماً فقال هذه الدراهم كانت على عهد الملك الفلاني فرفعهُ الى الملك وكان ملكاً صالحاً فسألهُ عنها فاعاد عليهِ حالهم فقال الملك واين اصحابك قال انطلقوا معي فانطلقوا معهُ حتى اتوا باب الكهف. فقال دعوني ادخل الى اصحابي قبلكم لئلا يسمعوا اصواتكم فيخافوا ظناً منهم ان دقيانوس قد علم بهم. فدخل عليهم واخبرهم الخبر فسجدوا شكراً لله وسألوهُ ان يتوفاهم فاستجاب لهم فضرب على اذنهِ وآذانهم واراد الملك الدخول عليهم فكانوا كلما دخل عليهم رجل ارعب فلم يقدروا ان يدخلوا عليهم فعاد عنهم فبنوا عليهم كنيسة يصلون فيها. قال عكرمة لما بعثهم الله كان الملك حينئذٍ مؤمناً وكان قد اختلف اهل مملكتهِ في الروح والجسد وبعثهما فقال قائل يبعث الله الروح دون الجسد وقال قائل يبعثان جميعاً. فشق ذلك على الملك فلبس المسوح وسأل الله ان يبين لهُ الحق فبعث الله اصحاب الكهف بكرة فلما بزغت الشمس قال بعضهم لبعض قد اغفلنا هذه الليلة عن العبادة فقاموا الى الماء. وكان عند الكهف عين وشجرة فاذا العين قد غارت والاشجار قد يبست فقال بعضهم لبعض ان امرنا لعجب هذه العين غارت وهذه الاشجار يبست في ليلة واحدة. والقى الله عليهم الجوع فقالوا ايكم يذهب الى المدينة فلينظر ايها ازكى طعاماً فليأتكم برزق منهُ وليلطف ولا يشعرن بكم احداً. فدخل احدهم يشتري الطعام فلما رأى السوق عرف طرقها وانكر الوجوه ورأى الايمان ظاهراً بها فاتى رجلاً يشتري منهُ فانكر الدراهم فرفعهُ الى الملك فقال الفتى أليس ملككم فلان فقال الرجل لا بل فلان فعجب لذلك. فلما احضر عند الملك اخبرهُ بخبر اصحابهِ فجمع الملك الناس وقال لهم انكم قد اختلفتم في الروح والجسد وان الله قد بعث لكم آية هذا الرجل من قوم فلان يعني الملك الذي مضى. فقال الفتى انطلقوا بي الى اصحابي فركب الملك والناس معهُ فلما انتهى الى الكهف قال الفتى للملك دعوني اسبقكم الى اصحابي اعرفهم خبركم لئلا يخافوا اذا سمعوا وقع حوافر دوابكم واصواتكم فيظنوكم دقيانوس فقال افعل. فسبقهم الى اصحابهِ ودخل على اصحابهِ فاخبرهم الخبر فعظموا حينئذٍ مقدار لبثهم في الكهف وبكوا فرحاً ودعوا الله ان يميتهم ولا يراهم احد ممن جاءهم فماتوا لساعتهم. فضرب الله على اذنهِ وآذانهم معهُ فلما استبطؤهُ دخلوا الى الفتية فاذا اجسادهم لا يتكرون منها شيئاً غير انها لا ارواح فيها فقال الملك هذه

آية لكم . ورأى الملك تابوتاً من نحاس مختوماً بخاتم ففتحهُ فرأى فيهِ رمحاً من رصاص مكتوباً فيهِ اسماء الفتية وانهم هربوا من دقيانوس الملك مخافة على نفوسهم ودينهم فدخلوا هذا الكهف قال علم دقيانوس بمكانهم بالكهف سده عليهم فليعلم من يقرأ كتابنا هذا شأنهم . فلما قرؤهُ عجبوا وحمدوا الله تعالى الذي اراهم هذه الآية للبعث ورفعوا اصواتهم بالتحميد والتسبيح . وقيل ان الملك ومن معهُ دخلوا على الفتية فرأوهم احياء مشرقة وجوههم والوانهم لم تبل ثيابهم واخبرهم الفتية بما قرأوا من ملكهم دقيانوس واعتناقهم الملك وقعدوا معهُ يسبحون الله ويذكرونهُ ثم قالوا لهُ نستودعك الله ورجعوا الى مضاجعهم كما كانوا . فعمل الملك لكل رجل منهم تابوتاً من الذهب فلما نام رآهم في منامهِ وقالوا انا لم نخلق من الذهب انما خلقنا من التراب واليهِ نصير فعمل لهم حينئذٍ توابيت من خشب فحجبهم الله بالرعب وبنى الملك على باب الكهف مسجداً وجعل لهم عيداً عظيماً واسماء الفتية مكسلينا وتمليخا ومرطوس ونيرويس وكسطوس ودينموس وريطوقس وقالوس ومخسيلمينيا . وهذه تسعة اسماء وهي اتم الروايات والله اعلم . وكلهم قطمير . انتهى

واما حكاية الكاتب الاميركي فخلاصتها ان رجلاً سماهُ الكاتب « ريبان ونكل » عاش في اميركا ايام كانت تابعة لانكلترا وكان ملك الانكليز في ذلك الزمان جورج الثالث (١٧٣٨ — ١٨٢٠) وفي عهدهِ تحررت اميركا وفازت باستقلالها فخرج بطل الحكاية يوماً للصيد في الجبل ومعهُ بندقيتهُ وكلبهُ فلما تعب لجأ الى كهف هناك ونام فيهِ سبع عشرة سنة متوالية . وكانت اميركا في خلال تلك المدة قد شقت عصا الطاعة على الملك جورج وحاربتهُ واستقلت عنهُ . وفي صبيحة اليوم الاول من السنة الثامنة عشرة استفاق صاحبنا من نومهِ فوجد بندقيتهُ قد علاها الصدأ وكلبهُ هيكلاً من العظام باليًا فدهش لذلك ونهض من مرقدهِ يروم العودة الى قومهِ . فلما دخل القرية انكر الناس منظرهُ واطمارهُ البالية فتألبوا عليهِ يستظلمون امرهُ فظن بهم سوءًا فصاح « ليحيَ الملك جورج » فانهالوا عليهِ ضرباً ولكماً حتى خلصهُ الشرطة من ايديهم وهو لا يعلم ذنبهُ . فلما قص قصتهُ وعلم الناس امرهُ وعلم هو امر نفسهِ زالت دهشتهم ودهشتهُ

نجيب شاهين